

أحسن القصص
سيرة الأنبياء (عليهم السلام)

قصة سيدنا شعيب (عليه السلام)

إلى مدين

كمال السيد

في قرية مدين حيث الأودية الخضراء كانت قبيلة عربية تعيش في رخاء من العيش، وعلى مقربة من مدين كانت قرية صغيرة، اشتهرت بخمائلها وبساتينها.. حتى عرفت بقرية "الأيكة".

في فترة قصيرة وقبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة ازدهرت الحياة في تلك المنطقة..
وقد ساعد اعتدال الهواء وتساقط الامطار على ازدهار الحياة الزراعية والرعي فعاشت القريتان في بحبوحة من العيش.
كانت قرية "مدين" قليلة السكان ولكن رخاء الحياة ساعد في تكاثر السكان وأصبحت قرية عامرة بالأسواق والنشاط.

وفي تلك القرية وفي ذلك الزمان عاش رجل صالح يدعى "شعيب". كان شعيب يحبّ قريته ويحبّ قبيلته بل أنه كان يحبّ الناس جميعاً.
لهذا كان يهتم بشؤون الحياة في "مدين" في قرية "الأيكة".
ولكن لماذا يبدو على شعيب الحزن؟.. لماذا كان الرجل الصالح يتألم من أجل قومه ؟

كان قوم أهل مدين وثنيين.. فهم يعبدون الأصنام.. يعبدون حجارة لا قيمة لها ولا دور.. ولكنهم يتصوّرون أن هذه الحجارة وهذه التماثيل المنحوتة هي التي ترزقهم وتبارك قريتهم.
لهذا كان سيدنا شعيب حزيناً.. فهؤلاء الناس لا ينظرون الى السماء.. الى الكون الفسيح الى الفضاء المليء بالنجوم. لا ينظرون الى الأرض.. الى الجبال الى الاشجار كيف تخرج من قلب التراب..

لو فكروا قليلاً.. لو تأملوا لعرفوا ان هذه الاصنام وهذه التماثيل الجامدة لا شأن لها ولا يمكن أن تكون إلهاً.
ان الإله الوحيد هو الله سبحانه الذي خلق كل شيء.. خلق الناس والنجوم والأشجار وكل ما تراه عيوننا وما ندركه بعقولنا..
من أجل هذا كان سيدنا شعيب يدعوهم الى عبادة الله الواحد ونبذ الأصنام والأوثان.



الغش في الأسواق:

الله سبحانه رزق الناس كل شيء.. وأهل مدين كانوا يعيشون حياة رغيدة، فقد كان كل شيء متوافراً في أسواقهم.. ولكنهم كانوا يَغِشُّون في معاملات البيع و الشراء، كانوا يُنقصون في الوزن ويَغِشّون البائع والمشتري، فاذا باعوا شيئاً خففوا في الوزن وإذا اشتروا شيئاً فانهم يشترونه بعد أن يُنقصوا في وزنه.

كانوا يتصوّرون أنفسهم أحراراً في هذا العمل .

وفي تلك الفترة اختار الله سبحانه الرجل الصالح شعيباً نبياً وليبلّغهم رسالته .

فماذا كان موقف أهل مدين؟ هذا ما سنعرفه فيما بعد.

رسالة الله:

كان سيدنا شعيب خطيباً بليغ القول.. حجّته قوّية لأنه يتحدّث باسم الحق والعدالة الانسانية.. ويتحدث بلغة الفطرة الصافية.

بدأ سيدنا شعيب دعوته الى عبادة الله الواحد ونبذ الاصنام، ثم راح يتحدث بهدوء عن فساد السوق، والظلم الذي يرتكبه أهل "مدين" بعد أن شاع فيهم التطفيف في الميزان.

قال سيدنا شعيب لهم انكم بأعمالكم هذه سوف تنشرون الفساد.. الحياة الاجتماعية تنهض على التبادل.. فكل انسان يعطي ما يفضل عن حاجته ويأخذ ما يحتاج من ضروريات الحياة.

وهذا التبادل في السوق يحتاج الى أمن عام يحفظ وزن الأشياء ونوعها ومقاديرها..

فاذا أشعتم الغش والتطفيف في الميزان وأعطيتم الرديء مكان الجيد، واذا احتلتم على المشتري او البائع، فان هذا فيه الدمار لكم جميعاً.

كانت كلمات النبي شعيب جميلة جدّاً لأنها تريد لهم حياة أفضل، يريد أن يعيش اهل مدين في قرية عامرة بالخير والرزق الوفير والأمن والايمان.

كان سيدنا شعيب يعرف ما حلَّ بقوم نوح وقوم صالح وقوم هود.. يعرف ماذا حلّ بقوم نوح وكيف غرقوا في أمواج الطوفان وكيف هبَّت العواصف لتجتث قبيلة ثمود.. وكيف أمطرت السماء شهباً وناراً لتُحيل "سدوم" و"عامورا" على البحر الميت الى خرائب..

قال شعيب لقومه: ألا تنظرون ما حلَّ بقوم لوط هذه خرائب قريتهم تشهد على ما حلّ بهم من العذاب لأنهم عصوا رسول الله اليهم.

انقسم أهل مدين الى فريقين، كان هناك فريق آمن بشعيب ورسالة الله التي يحملها.. كانوا فقراء مستضعفين.

وكان هناك فريقاً آخر فريقاً يتألف من طغاة أهل مدين وأثرائهم.

وكان هؤلاء يحاربون شعيب والذين آمنوا به، كانوا يهددون شعيب قائلين:

اننا لا نفهم ما تقول يا شعيب.. ثم انك ضعيف، ولولا رجال من قبيلتك لقتلناك أو طردناك من مدين.

قال شعيب (عليه السلام):

أتخافون رجالاً من قومي ولا تخافون الله سبحانه.. انني لا أريد سوى اصلاح هذه القرية ولا أريد على ذلك اجراً..

اني احذّركم من غضب الله اذا ما ظللتم على فسادكم وغشكم وعبادتكم للأوثان وما تقومون به اعمال مشينة في الأسواق من تطفيف الميزان والمكيال.

قال المستكبرون:

اننا أحرار في كل شيء.. احرار في ان نتصرف بأموالنا.

ضحك رجل وثني وقال ساخراً:

هل أن صلاتك هي التي تأمرك أن نترك آلهتنا والاّ نتصرف في اموالنا بحرّية؟!

قال لهم سيدنا شعيب:

انا لا انهاكم عن شيء ثم ارتكبه..

ان الحرّية ليست في أن يتصرّف الانسان ثم يظلم أخاه الانسان.

تصرّفوا بأموالكم كما تشاؤون ولكن لا تظلموا الآخرين ولا تغشوهم، ولا تطففوا في الميزان والمكيال..

انتم تعيشون في قرية واحدة.. وعليكم أن تتعاونوا فيما بينكم.. وأن يحترم كل منكم حرّية الآخرين..

يا قومي استغفروا ربكم وعودوا اليه ان ربّي رحيم ودود.. الله يريد لكم الخير.. ولهذا أرسلني اليكم.

قال بعضهم:

انت رجل مسحور يا شعيب.. اننا لا نفهم ما تقول ابداً، ولولا رجال من اقاربك لقتلناك.. اننا نستطيع أن نفعل ذلك متى أردنا.

عندما رأى شعيب ان قومه يعاندونه ولا يستمعون الى مواعظه تركهم بعد أن حذرهم، وقال لهم:

يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ.... مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ.

قالوا وهم يسخرون: اننا نتهمك بالكذب فاذا كنت صادقاً فأنزل علينا عذاباً من السماء.

قال سيدنا شعيب:

سوف تعلمون من الكاذب.

وهكذا تركهم وذهب الى قرية قريبه هي قرية " الأيكة ".



أصحاب الأيكة:

لم يكن سيدنا شعيب من أهل هذه القرية، كان من أهل "مدين"، وعندما وصل شعيب (عليه السلام) قرية "الأيكة" وجد أهلها يعيشون حياة تشبه حياة أهل مدين..

رأى بساتين مثمرة وقد التفت الاشجار حول بعضها، ورأى خيراً وفيراً، فالعيون تتدفق من قلب التراب.. والصخور، وتسقي الحقول ولكنهم أيضاً كانوا يعبدون الاصنام ويغِشُّون في معاملات البيع والشراء.

لهذا قال لهم سيدنا شعيب:

ألا تتقون الله وتخافون غضبه ؟ انني اخاف عليكم من عقوبة الله.. ان الله لا يحب الفساد ولا يحب الأشرار.. فلا تعثوا في الارض مفسدين !

رفض أهل الايكة الايمان برسالة شعيب وقالوا عنه أنه ساحر كذاب.

قالوا له:

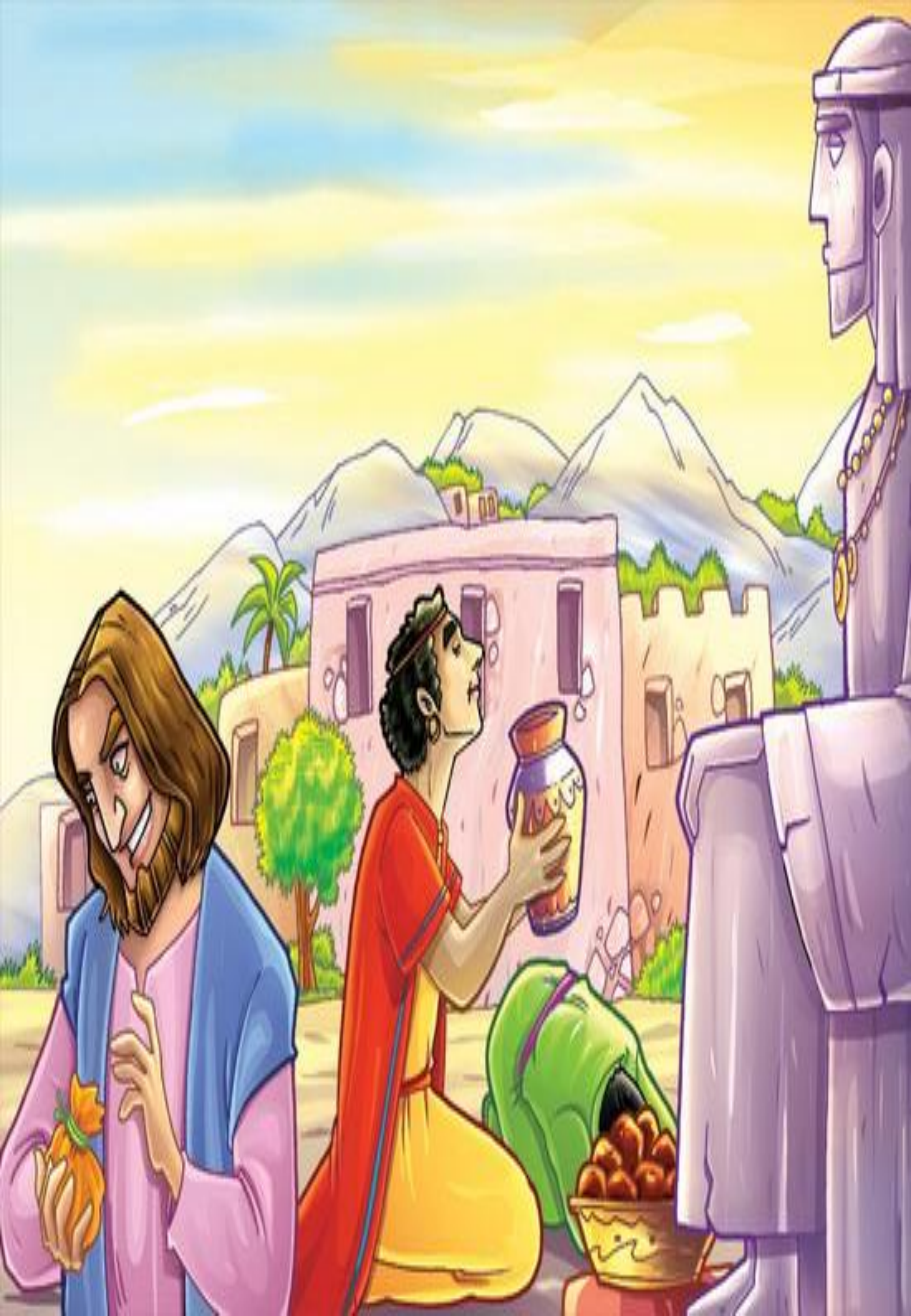
اذا كنت صادقاً فانزل علينا كِسفاً من العذاب.

قال شعيب بأدب عظيم:

ان الله يعلم ما تعملون انني ابلغكم رسالة ربّي.. وأن ما أريده هو الاصلاح ما استطعت.

قالوا:

انما انت ساحر كذاب.. ما هو فرقك عنّا أنت بشر مثلنا.



وهكذا عاد شعيب الى مدين وراح أهل الايكة يمارسون حياتهم بعيداً عن الايمان والعدالة والصلاح.

أما أهل مدين، فقد بدأ الصراع فيها بين المؤمنين والوثنيين، لم يكتف الكفار بعدم الايمان برسالة الله بل راحوا يهددون المؤمنين ويؤذونهم.. حتى وصل الأمر بهم أن يهددوا المؤمنين بالعودة الى الوثنية.

نصح النبي شعيب قومه الاّ يقطعوا طريق الايمان.. إنه الطريق المشرق في الظلام، وان الله سبحانه لن يغفر لهم ذلك.

وذات يوم جاء الكفار وقالوا لشعيب:

سوف نطردك ونطرد الذي آمنوا بك واتبعوك.

قال أحد المؤمنين:

لكنا لم نفعل شيئاً نستحق عليه الطرد ؟!

قال الكفار:

سوف نرغمكم على العودة الى ديننا.

استنكر النبي (عليه السلام) وقال:

حتى لوكنا نكره هذه العقيدة ،! كلاّ لن يعود المؤمن الى عبادة الوثن بعد أن اضاء الله قلبه.

رفع شعيب يديه الى السماء وقال بخشوع:

{رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}.

النهاية:

اعتزل سيدنا شعيب قومه، ولكن الوثنيين لم يتركوا النبي والذين آمنوا ليعيشوا بسلام.

كانوا يحاولون اعادتهم الى الوثنية، وكانوا يؤذونهم باستمرار.

كانوا اذا رأوا أحداً يريد الاقتراب من منزله والاستماع الى مواعظه فانهم يقطعون الطريق عليه ويهددونه.

وكان سيدنا شعيب يذكرهم بمصائر الامم السابقة، يذكرهم بمصير الذين كانوا يؤذون الانبياء ويحاربون المؤمنين.

لقد رأوا خرائب سدوم وعامورا، ولكنهم لم يعتبروا من ذلك المصير الرهيب الذي حلّ بقوم لوط !

وجاء اليوم الموعود.. بكر الناس الى أعمالهم، بعد أن ركعوا وسجدوا للأوثان والحجارة..

وكانت اسواقهم تسودها ضجة، وعيونهم تبرق بالغش.

كانوا يفكرون كيف يحتالون أكثر ليربحوا أكثر!

وهكذا انقضى اليوم وغابت الشمس وحلّ الظلام.



مرّت ساعات الليل بطيئة متثاقلة.

فجأة اهتزت الأرض هزّات مدمّرة وكانت لحظات رهيبة تحولت فيها مدين الى انقاض وخرائب.

وعندما يمرّ المرء بتلك القرية الجميلة فانه سيصاب بالدهشة كيف تحولت وفي لحظات الى اطلال وخرائب؟!

وكان العجيب في تلك الحادثة أن المؤمنين وحدهم قد نجوا وخرجوا من القرية بسلام.

أما قرية الايكة، فقد حلّ فيها عذاب آخر وكان عذاب يوم الظلّة.

ورأى سيدنا شعيب خرائب القرية فقال بحزن: {يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ}[1].



وعاش سيدنا شعيب بقية عمره في "مدين" وكان عنده قطيع من الماشية.

وعندما أصبح شيخاً طاعناً في السن تولّت ابنتاه الرعي وكانتا تعانيان في هذه المهمة خاصّة عندما تريدان أن تسقيا قطيع الأغنام، لأن الفتاة يمنعها الحياء فلا تستطيع أن تزاحم الرعاة.

وذات يوم جاء شاب من مصر كان عمره ثلاثين سنة، انه موسى بن عمران الذي فرّ من ظلم الفراعنة ولجأ الى قرية مدين، فماذا حصل ؟

هذا ما سنعرفه في الكتاب القادم من سلسلة أحسن القصص.



النهاية

إلى مدين

المصدر: موقع رافد